

تفسير البحر المحيط

. @ 176

فقد جئنا خراسانا .

وحقيقتها أنها جواب شرط يدل عليه الكلام ، كأنه قال : إن صح ما قلتم من أن أقصى ما يراد بنا قلنا القفول : قد جئنا خراسانا ، وإذا أمكن جعل الفاء عاطفة ، لم يتكلف إضمار شرط ، وجعل الفاء جواباً لذلك الشرط المحذوف ، لا تعلمون لتفريطكم في طلب الحق واتباعه . وقيل : لا تعلمون البعث ولا تعرفون به ، فصار مصيركم إلى النار ، فتطلبون التأخير . { فَيَدَّوْهُم مَّئِذٍ } : أي يوم إذ ، يقع ذلك من إقسام الكفار وقول أولي العلم لهم . وقرأ الكوفيون : { لَا يَنْفَعُ } ، بالياء هنا وفي الطول ، ووافقهم نافع في الطول ؛ وباقي السبعة بناء التانيث . { وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } ، قال الزمخشري : من قولك : استعبتني فلان فأعتبته : أي استرضاني فأرضيته ، وذلك إذا كان جانياً عليه ، وحقيقته : أعتبته : أزلت عتبه . ألا ترى إلى قوله : % (غضبت تميم أن يقتل عامر % . يوم النثار فأعتبوا بالصيلم .

. %)

كيف جعلهم غضاباً . ثم قال : فأعتبوا : أي أزيل غضبهم ، والغضب في معنى العتب ، والمعنى : لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة ، ومثله قوله تعالى : { فَالْيَدِ يَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } . فإن قلت : كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات ، وغير معتبين في بعضها ؟ وقوله : { وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَهُمْ مِّنَ الْمُعْتَبِينَ } ؟ قلت : أما كونهم غير مستعتبين ، فهذا معناه ؛ وأما كونهم غير معتبين ، فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه ؛ فشبهت حالهم بحال قوم جنى عليهم ، فهم عاتبون على الجاني ، غير راضين منه . فإن يستعتبوا □ : أي يسألوه إزالة ما هم فيه ، فما هم من المجابين إلى إزالته . وقال ابن عطية : هذا إخبار عن هول يوم القيامة ، وشدّة أحواله على الكفرة في أنهم لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يعطون عتبي ، وهو الرضا . ويستعتبون بمعنى : يعتبون ، كما تقول : يملك ويستملك . والباب في استفعل أنه طلب الشيء وليس هذا منه ، لأن المعنى لا يفسد إذا كان المفهوم منه ، ولا يطلب منهم عتبي . انتهى . فيكون استفعل في هذا بمعنى الفعل المجرد ، وهو عتب ، أي هم من الإهمال وعدم الالتفات إليهم بمنزلة من لا يؤهل للعتب . وقد قيل : لا يعاتبون على سيئاتهم ، بل يعاقبون . وقيل

: لا يطلب لهم العتبي . وقيل : لا يلتبس منهم عمل وطاعة ، ولكن ضربنا إشارة إلى إزالة
الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار . وقال الزمخشري : وصفنا لهم كل صفة كأنها
مثل في غرابتها ، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن ، كصفة المبعوثين يوم القيامة ، وما
يقال لهم ، وما لا يقع من اعتذارهم ، ولا يسمع من استعتابهم ، ولكنهم لقسوة قلوبهم ومج
أسماعهم حديث الآخرة ، إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا : أجيئنا بزور باطل ؟ انتهى
و { أَنتُمْ } : خطاب للرسول والمؤمنين ، أي : تبطلون في دعواكم الحشر والجزاء .
وقال أبو عبد الله الرازي : وفي توحيد الخطاب بقول : { وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ } ، والجمع في
قوله : { إِنْ } { أَنتُمْ } لطيفة ، وهي : أن الله عز وجل قال : { وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ } بكل
آية جاءت بها الرسل ، فيمكن أن يجاوبوه بقوله : أنتم كلكم أيها المدعون الرسالة مبطلون
..

{ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ } : أي مثل هذا الطبع يطبع الله ، أي يحتم على قلوب الجهلة
الذين قد حتم الله عليهم الكفر في الأزل ، وأسند الطبع إلى ذاته تعالى ، إذ هو فاعل ذلك
ومقدره . وقال الزمخشري : ومعنى طبع الله : صنع الألفاظ التي يشرح لها الصدور حتى تقبل
الحق ، ثم قال : فكأنه كذلك تصدأ القلوب وتقسو قلوب الجهلة حتى يسموا المحقين مبطلين ،
وهم أعرف خلق الله في تلك الصفة . انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال . ثم أمره تعالى بالصبر
على عداوتهم ، وقوّاه بتحقيق الوعد أنه لا بد من إنجاز الوفاء به ، ونهاه عن الاهتزاز
بكلامهم والتحريك ، فإنهم لا يقين لهم ولا بصيرة . وقرأ ابن أبي إسحاق ، ويعقوب : ولا
يستحقنك : بخاء مهملة وقاف ، من الاستحقاق ؛ والجمهور : بخاء معجمة وفاء ، من الاستخفاف
؛ وسكن النون ابن أبي عبله ويعقوب ، والمعنى : لا يفتننك ويكونوا أحق بك من المؤمنين .